**[المبحث الثاني: الأسس العلمية للنّظرية السّلوكية ومرجعيتها الفلسفية](http://elearning.univ-km.dz/course/view.php?id=319" \l "section-5):**

من خلال ما عرضناه آنفا،  ترتكز هذه النّظرية على جملة من الأسس العلمية، منها:

- **01استبعاد الجوانب الذّهنية:** مثل العقل، والتّصور والفكرة، ودحض كلّ تحليل يعوّل على الاستبطان، وإبراز ما يمكن ملاحظته ملاحظة مباشرة بالاعتماد على السّلوك الظّاهري دون سواه. وحين تطبيق هذا المنهج على الظّاهرة اللّغوية ينصّب التّحليل على الأشكال اللّغوية الظّاهرة، والمواقف المباشرة التي أدّت إلى إنتاجها في الواقع اللّغوي.

**- 02 استبعاد دور الدّوافع والقدرات الفطرية** في الظّواهر السّلوكية، وإعطاء أهمية قصوى لعملية التّعلّم في اكتساب النّماذج السّلوكية.

-**03 التركيز على الملاحظات والسلوكات** **المباشرة** للسلوك الظاهر, وذلك لأنهم يعتمدون التجريبيّة, وهي اتجاه شاع في دراسة العلوم الطبيعية، ويعتبر أنّ كلّ معرفة حتّى تكون عملية يجب أن تخضع إلى إجراءات المنهج العلمي، وعلى رأس هذه الإجراءات التّجربة. لذلك يرون أن التّواصل اللّغوي يعد نوعا من الاستجابات لمثيرات ما تقدّمها البيئة أو المحيط. وبناء على هذه الأسس فالمتكلّم في نظر بلومفيلد وأتباعه حين أدائه الفعلي للكلام، يكون قد قام باستجابات نطقية لمثيرات ما تخضع خضوعا مطلقا لحافز البيئة، دون أن ترتبط هذه الاستجابات بأدنى قدر من التّفكير، لأنّ الاستجابة الكلامية مرتبطة بصورة مباشرة بالحافز، ولا تتطلّب تدخل الأفكار، وذلك لأنّ اللّغة في نظرهم لا تعدو أن تكون عادات صوتية يكيّفها حافز البيئة. ترتكز المعطيات العلمية للتفسير السّلوكي على التّجارب المخبرية التّي أجريت على الحيوانات. والنّتائج المحصّل عليها في هذا المجال، جعلت السّلوكيين يعمّمونها على المظاهر السّلوكية لدى الإنسان، فتبدو اللّغة وفق هذا المنظور سلسلة من الاستجابات المتتالية.

-04 **الفلسفة الوضعية (**positivisme): هي مذهب فلسفي يعنى بالظواهر اليقينية، ويرفض كلّ تفكير تجريدي في الأسباب المطلقة، أي أنّ هذه الفلسفة لا تسلّم إلا بما هو مرئي تجريبي، وتنفي صفة العلمية عمّا سوى ذلك.

- **05البراجماتية (النّفعيّة** : (pragmatisme ) هي مبدأ من المبادئ التّي تشبّعت به الثّقافة.

- **الأنجلوسكسونية وأثرها في فكر وساوك الأمريكيين:**

**السّلوكية وتعليميّة اللّغة:**

      ينظر السّلوكيون إلى اللّغة وإلى تعلّمها وعلى رأسهم ليونارد بلومفيلد بأن عملية اكتساب اللّغة تندرج ضمن إطار نظرية التّعلم. فاللّغة في منظورهم شكل من أشكال السّلوك الإنساني، ولذلك فإنّهم لا يقرّون بوجود أي تباين بين مسار تعلّمها وتعلّم أي مهارة أو خبرة أو سلوك آخر. وبناء على الثلاثي الذي وضعه السلوكيون لهذه النظرية, والمتمثل في : المثير والاستجابة والتعزيز, يفسرون من خلاله العمليات التعليمية, فكل ما يقوم به المعلم إزاء التلميذ ويوجهه إليه, يعد مثيرا, فالسؤال الذي يطرحه المعلم, والصورة التي يظهرها على اللوح, تمثل مثيرات لأنها تدفع التلميذ للتكلم, لذلك فإجابة التلميذ عن السؤال, وتعليقه عن الصورة, تعد استجابات, وتعليق المعلم على تلك الإجابات تعد تعزيزا إيجابيا أو سلبيا. فإذا كانت الإجابات صحيحة يعمد المعلم إلى تدعيمها والتعقيب عليها بالقبول والشكر والتأييد, وإذا كانت خاطئة يعمل المعلم على توقيفها أو إزالتها, وذلك هو التعزيز السلبي. والأسس التّي قامت عليها عملية تعلّم معنى اللّفظ، قد ظهرت في نظرية التّعلّم بالمنعكس الشرطي من حيث الاقتران التكراري بين مثيرين لصدور استجابة ما. أي أنّ المثيرات اللّفظيّة (أصوات كلامية) تقترن مع مثيرات شيئية اقترانا منظّما متكرّرا، ومن ذلك مثلا كأن تحمل الأم مثال ذلك: حينما تقول الأم لطفلها كلمة (كرة) مرات عديدة في اللّحظة التّي يتطلّع فيها إلى المثير الشّيئي نفسه وهو الكرة، فالمثير الأوّل مثير شرطي، والثّاني مثير طبيعي، والاستجابة الشّرطية تتمثّل في دلالة اللّفظ المكتسب، بحيث كلّما يلفظ لفظ كرة, يستجيب له ويفهمه دون إحضار الكرة كشيء. وحينما يسمع الطّفل مثيرا معيّنا، وليكن كلمة(لا) وذلك في اللّحظة التّي يراد فيها حدوث استجابة معيّنة مثل (سحب اليد)، فالمثير السّمعي (لا) يعتبر مثيرا شرطيّا بالنّسبة لليد المسحوبة. وتتكرّر حدوث هذه العملية عدّة مرّات، حيث يسمع الطّفل أوّلا كلمة (لا) تعقبها مباشرة (الضّربة على اليد) وسحب اليد، وذلك بعد اقتران كلمة (لا) عددا من المرّات مع الضّربة على اليد، وفي هذه الحالة، تنشأ علاقة إشراطية بين المثير الشّرطي (لا) والاستجابة الشّرطية (سحب اليد)، وهكذا ينشأ ويتكوّن المنعكس الشّرطي.

     أمّا ما يتعلق بنظرية سكينر في السّلوك الكّلامي فترجع إلى نظريته العّامة. فإذا قال الطّفل: "(أريد ماءً)، ويقدّم له الماء، فإنّ هذا السّلوك يتعزّز ويصير إشراطيًا بالتّكرار. ويرى سكينر بأنّ السّلوك اللّغوي مثل أي سلوك آخر، يمكن التّحكّم في نتائجه، فهو يتعزّز حين تكون النّتيجة مكافأة، وينطفئ إذا كانت النّتيجة عقابا. وبعبارة أخرى، فإنّ احتمال وقوع السّلوك الإجرائي مرتبط بما يسمّيه سكينر بالإشراط الفعّال أو الإجرائي. وكلّما عزّز السّلوك الإجرائي كلّما صارت احتمالات وقوعه مستقبلا كبيرة. من هذا المنطلق يرى سكينر أنّ السّلوك اللّغوي المكتسب هو نتيجة تفاعل ثلاثة عناصر: تنبيه, استجابة, تثبيت. ومن هنا نصل إلى أنّ اللّغة تكتسب في إطار النّظرية السّلوكية بالطريقة نفسها التّي تكتسب بها بقية الاستجابات الأخرى غير اللّغوية، وذلك بالمثيرات، والمحاكاة، والتّكرار، والإشراط، والتّعزيز. وبصورة عامّة فليس هناك، في نظرهم، فرق بين تعلّم اللّغة وبين أي شكل آخر من أشكال التّعلّم. خلاصة هذه النظرية يمكن إجمالها في النقاط التالية: من خلال هذه الاستفاضة للآراء المتتابعة والمتكاملة بين زعماء هذه النظرية يمكن الوصول إلى ما يلي:

- **أولا:** إن المعلم هو السند الحقيقي والركن الأساس, لذلك فهو يحتل المكانة المرموقة في العملية التعليمية, وهو محورها. ويتمثل دوره في تهيئة بيئة التّعلّم لتشجيع الطّلاب لتعلّم السلوك المرغوب, ويعمل على تعزيزه. أما المتعلّم فتُظهِره النّظرية السّلوكية بطابع المستجيب للمؤثرات, فالمتعلم في نظرهم خزان ينبغي أن يملأ ويعزز. والتّعلّم يرتبط بالتّغير في سلوك المتعلّم, وبالسّلوك الظّاهر له. ومن خلال هذا المبدأ الأساس, تتجلى بقية المرتكزات الأخرى المكملة والتالية لما سبق. ومن ذلك:

**ثانيا:** ليس هناك فرق عند السلوكيين بين تعلم اللغة وتعلم شيء أخر لأنهم لا يتصورون أي موهبة داخلية عند الإنسان سوى أن الإنسان يمتلك القدرة على تعلم اللغة, لذلك ما يسمعه المتعلم هو ما يتعلمه. فاللّغة في نظر السّلوكيين لا تعدو أن تكون عادات صوتية يكيّفها حافز البيئة.

**ثالثا:** التعزيز عند السلوكيين غير كاف لوحده, إذ لا بد له من التكرار والممارسة الفعلية للغة, فالتكرار وحده أمام المتعلم غير كاف للتعلم بل ينبغي على المتعلم أن يمارس بنفسه اللغة. لذلك يرون أن التّدريب ينبغي أن يكون على الدّوام كهدف وكوسيلة أساسية في الآن نفسه لتحقيق إتقان الموضوع المطلوب تعلّمه. ويرون أن الكلام والمشافهة هو ركيزة التعلم الايجابي, لأن الطفل  بدأ الكلام في لغته الأم قبل أن يبدأ تعلم الكتابة, لذلك فالكلام أولا في المقام الأول ثم الكتابة ثانيا.

**رابعا**: لا حرج عند السلوكيين أن يقولوا بعدم وجود العقل في العملية التعليمية عند الإنسان لأنه غير ملموس, ولا يمكن تحديده أو الإشارة إليه لذلك فالتعلم عملية آلية تختص بتكوين عادات لغوية يكتسبها المتعلم. والكلام نشاط حركي فقط. ويتلخّص السّلوك في المبدأ المعروف: مثير- استجابة - تعزيز.

**خامسا:** المنهاج ينبغي أن يكون وضحا متمثلا في وثيقة رسمية كالكتاب المدرسي مثلا.

**سادسا:** التقويم يقوم على كمية المعلومات والاستجابات الحاصلة.  2- نقد النّظرية السلوكية: هذه التّفسيرات لعملية اكتساب اللّغة في إطار النظرية السّلوكية، فإنّ النّظرية اللّسانية السّلوكية تظل تفسيراتها أعجز من أن تقنع الدارسين ببساطة هذا التحليل وسذاجته. وتبقى شروحاتها عاجزة عن توضيح العديد من جوانب اللّغة العملية، والخلفيات الفكرية, فاللغة ظاهرة معجزة أكبر بكثير مما تصوره السلوكين, وأعقد مما ذكروه.  فعلم النّفس السّلوكي يبدأ في فهم معجزة اكتساب اللّغة بتأكيده على المنهج العلمي وعلى الملاحظة التّجريبية، ويغالي في ذلك مغالاة غير مقبولة عمليا, بحكم أن الملاحظة والمباشرة وكذا الموضوعية التي يتسم بتا البحث العلمي, انطلاقا من أن اللسانيات تدرس اللغة دراسة علمية, لا يمكن فهمها كما تفهم الموضوعية في العلوم الطبيعية. بل إن للعلوم الإنسانية خصائصها التي تميزها عن العلوم الطبيعية. لذلك وقف السلوكيين موقفا حائرا ولم يفسروا الظاهرة تفسيرا علميا مقبولا. ولهذا قوبلت النّظرية السّلوكية بالكثير من الانتقادات الموضوعية المؤسسة، خصوصا تلك التّي قدّمها تشومسكي، الذّي رأى بأنّها قائمة على اعتقادات أوليّة، وأنها قدمت تفسيرا لا يرقى إلى مستوى تعقيد الظاهرة اللغوية "وأنّ الفرضيات التّجريبية التّي سيطرت على دراسة اكتساب المعرفة طيلة سنين عديدة، قد تبنّاها البعض دون تبرير، وأنّه لا مكانة لها ضمن الإمكانات المتعدّدة التّي يمكن تصوّرها فيما يتعلّق بكيفية عمل الفكر.". وبهذا اعتبرت النّظرية السّلوكية عاجزة عن تفسير عملية اكتساب مفردات اللّغة وجملها على حدٍّ سواء. ففيما يتعلّق بالمفردات مثلا، فإنّ عملية الفهم تسبق عملية التّفكير، أي أنّ الطّفل يفهم معنى الكثير من المفردات قبل أن يتلفّظ بها، ممّا يؤكّد أنّه اكتسب هذه المفردات أو العبارات فهما دون تدعيم، وهذا لا يعني أنّ التّدعيم لا قيمة له في تعلّم اللّغة.

- كثيرا ما يكون تقليد الطّفل للكبار غير مطابق لما يسمعه، ومع هذا يهلّل الكبار له، وقد يأخذون حتّى في استعمال المفردة التّي يستعملها هو، ورغم هذا فإنّه يتخلّى تدريجيا عن اللّفظة المدعّمة التّي سمعها واستعملها طويلا، ويتحوّل إلى استعمال لفظة الكبار.

إنّ المفردات التّي يمكن للطّفل أن يتعلّمها عن طريق الربط بين الدّال والمدلول، هي المفردات الدّالة على الأشياء المحسوسة، فكيف يمكن في ضوء هذه النّظرية، تفسير تعلّم الطّفل للعديد من المفردات ذات المعاني المجردة, حيث يسمع الطّفل مفردات كثيرة، خاصة الوظيفيّة منها كـ (الذّي) أو(إذا) دون أن يتعلّمها، لعدم إدراكه المفاهيم التّي تعبّر عنها، وهو أمر لا تفسير له في إطار هذه النّظرية. من هنا، يمكن القول أنّ التّفسير السّلوكي للدّلالة اللّسانية قد يكون ناجعا إلى حدٍّ ما في تفسير بعض الكلمات ذات الإحالات المحسوسة، التّي يمكن أن تعاين في الواقع اللّغوي بناء على مظاهرها الفيزيائية المميّزة. لكن على الرّغم من ذلك سيظلّ هذا التّحليل محدودا، بحيث لا ينطبق على الجانب الأعظم من الكلمات اللّغويّة.

      أمّا من الناحية السياسية والاجتماعية, فقد انتقدت السلوكية انتقادا لاذعا، فالقول بأن الطفل يولد صفحة بيضاء, أمر غير مسلم. فمهما بدا أن الطفل يخضع لمؤثرات المجتمع إلا أنه ليس صفحة بيضاء, فما يصدر من الطفل بسرعة فائقة وبعد عدد من الأشهر بعد الولادة لا ينم مطلقا على أنه ولد وهو لا يملك شيئا. ولو كان الأمر كذلك، كما تنصّ على ذلك السّلوكية، فإنّ القائمين على أمور المجتمع والقيمين عليه يستطيعون التصرف في حياة الأفراد كما يشاؤون ويصنعونه بالطّريقة التي يريدون بحكم أنه بين أيديهم كالعجين يشكلونه بالطريقة التي يحددونها, وأمر كهذا لو كان حقيقة لكانت حرية الإنسان في خطر ولما كان مسئولا عن نفسه لأنّه لا يتصرّف بالمطلق في حياته.

إنّ وصف الإنسان بالصّورة التي يذكرها السّلوكيون لا تتماشى والواقع الإنساني عبر مسيرة الحياة البشرية، فلو كان الإنسان لا يتعلّم إلّا يسمع ولا يعرف إلّا ما يعلم، ويظلّ خاضعا للمؤّثرات فقط دون غير, لا يمكن بحال أن يصل إلى التّطور الذي وصله اليوم. فحياة الإنسان الزاخرة بشتّى المخترعات وبأنواع التّفكير تنبئ أنّه يملك قوة أخرى فوق ما يسمع وما يتعلمّ لإدارة حياته بنفسه واستقلاله بتفكيره. بل إنّ الأساليب اللّغوية المتعدّدة التي يبدعها الشّعراء والكتاب لدّليل على أنّ للإنسان قدرات لغويّة معيّنة وغير محدودة تنبئ عن وجود طاقة عقلية يستخدمها الإنسان في هذا المجال. ومن ناحية أخرى يرى تشومسكي أنّ مسألة المثير والاستجابة وعملية التّعزيز غير واضحة بصورة علمية وافية، خصوصا عندما يكون داخليا، وهم حينها يناقضون أنفسهم بهذا القول باعتبار أنّهم يؤمنون بما يلاحظ،ويستبعدون من نظريتهم ما له علاقة بالمشاعر وبما لا يرى على وجه العموم. ولأنّ المثير لا يلاحظ إلّا عند حدوث الاستجابة، لذلك فالمثير ليس مفهوما ولا واضحا بصفة موضوعية.